عزالدين القسام

جزء من حديث ذات ليلة باردة

(١)

وانا مثل مغنٍّ يحمل قيثارا
يمشي في الحلم ويبكي ويغني
يهبط سقف الليل ،
فاقرأ ،
أتأملْ ،
أرسم فوق الجدران .
اقمارا احرقها

ونظل معا
قلبي وفلول الايام المنهزمة
مثل قطار واهن
يعبر بي مدن الذكرى
أرتعش وتسقط فوق سريري نجمه
ابحث في قاموس الاسرار
عن معنى المطر ،
وحزن الآنية المكسورة ،
لكن الكلمه
تزرعني ثانية في منطقة اللغز
ما بين الواقع والأسطوره

قال ابو حسن اللداوي
(وابو حسن اللداوي هذا ،
يعمل حمالا ، احيانا ،
ماسح احذية ، عامل مقهى ،
احيانا يتجول بين الاحياء ،
يبيع الترمس للاولاد ،
ويملك صندوق عجب) .

ـ في العاشر من ايلول الماضي
أعولت الدنيا ، وانشق جدار البيت
عن شيخ كان جريحا
ووقور الحزن ، مهيب الصمت
بادرني مثل الدهشة . قال :

● **انا عزالدين القسام**
هل تاذن لي أن اقضي الليلة في بيتك؟

ـ عزالدين القسام !
« لا أعرف أحدا يحمل هذا الاسم »

● **رجل من ارض الشام**
لا يملك عائلة ، لا يملك بيتا
يتجول في احياء الفقراء
وكثيرا ما شاهده بعض الفلاحين
يعبر بين الاشجار
يبحث عن حبة تين يابسة ،
عن جرعة ماء
كان يرى بعض النسوة يحملن جرارا،
ويطفن على الآبار
فيمر سريعا ، ويحاذر لقيا الاطفال
والنظر اليهم .

كي لا يبكي .

(وتوقف مهموما مثل حصان مجهد ليتابع) .

ـ

● **اعرف اني مجهول منسيّ**
مجهول المولد ، مجهول الموت .

ولمحت بعينيه بريقا ،
قلتُ :
أتبكي يا شيخ ؟

● **لا املك عينين لأبكي**
فانا جئت ازور الوطن لأنظر احبابي
وأعانقهم ،
لا ارثيهم .

ـ قال ابو حسن اللداوي ـ
(واحترت كثيرا في هيئته المأساويه)
في بقع الدّم المتجمدة ،
على الكتفين ، وفوق الصدر
في هذي الأعشاب النامية على جبهته،
والطين العالق في قدميه
قلت له :
ـ ما الامر ؟!
امعن بعض الوقت ،
وعدّل فوق الراس عمامته البيضاء .
فانتحبت في كفيه عصافير كثيره
خيّل لي أن العزلة
تسكنه منذ قرون .
أن الوحشة بيته
وكما لو أن بلادا واسعة ،
تحتل مساحة قلبه
راح يغني موالا شعبيا
عن شمس تغرب
عن وجه يشحب
عن سفن تشرع نحو المنفى
عن عشق لم اسمع مثله
يا الله.....ه . يا الله !!
بعد قليل ردّد بأسى مفجوع :

● **« دار جفتنا يحق لنا نعاتبها**
ونجيب فووس النيا ونهدم عواتبها(١)»

أسلم عنق الموال لمقصلة الصمت ،
ولملم نفسه) .
ـ هل تعمل شيئا يا شيخ ؟

● **كنت قديما**

ـ أين ؟

● **في الشارع والمسجد والبريه**
عملي كان
محصورا بين الفقراء
ياتون اليّ صباح مساء
فاوجّج فيهم نار الحكمة ،
والموعظة وحب الأرض
اطعمهم من زاد القلب
واقرّبهم من ملكوت الرب

ـ انت حزين يا شيخ .
ما تحمل في قلبك ؟!

● **منشورات سريه**

ـ ماذا ؟

● **احمل تذكارات الأمس ،**
مواويل الجبل وصورا، للاطفال الباكين
احمل وطنا يتوجع
فانا منذ قتلت
هاجرت الى مملكة الاعشاب ،
سكنتُ قلوب الشجر ،
واعراق الزعتر ، قلت :
ياتي من يكسر هذا القيد
يأتي من يشعل اعراس الارض ،
ويحترم الانسان
يأتي من ينعم بالوردة والخبز
لكن لم يأتوا حتى الآن
فمتى يأتون ، متى يأتون .

ـ يا شيخي الطيب
أحيانا يفلت مني المعنى فاتيه
لكني أوخذ بالصوت
والحزن الاخضر في كلماتك
كيف تقول قتلت وها انت أمامي ؟!

● **الموت رفيقي**
فلذا يسمح لي احيانا
أن اتجول في مملكتي
وأطوف على الاحياء

ـ وجروحك ؟

● **يجمل ان تبقى**
حتى يعرفني الناس
حتى يستيقظ فيهم شيء ما
حتى لا يقعوا ثانية ،
في هاوية الاخطاء .

ـ ما تفعل لو صادفك الحراس ؟

● **الشرطة والعسكر والحراس**
هم بعض الاعداء ،
ومن مصلحة الدوله
ان تبقى اوراقي مطويه

(اطفأت الوابور
وأنا لم افهم شيئا
وسكبت له كباية شاي ساخن
قلت : تفضل
في الخارج كان الليل وحيدا
الا من صرصرة الريح ،
ورجع خطى مجهوله .)

« جسمي تقطّع وجرحي طال يامولاي(٢)
واقلام حبري براها الهم يا مولاي
نهر الفرا من دمعتي فار
ودوّر طاحون وخشب
ولا بارك الله في قوم يعبدون الخشب
انت تنين ياللي من حديد وخشب
اشحال انا من لحم ودما صابر على بلواي »

(التمعت عينا الشيخ
وارتفعت يده تمسح عن وجهه
شيئا مـا ..
قلت :)

ـ هذا حمدان الناطور
وضعت مصلحة البلدية يدها ،
فوق مساحات من أرض القريه
واشتقتّ من بيارته اسفلتا ،
جعلت منها منتزها للسياح .
قاوم حمدان المشروع بكل قواه ،
ولكنّ المقدور وقع .
حمدان جثا فوق الارض وقبّلها .
رفض التعويض .
بكى ،
بين يدي بيارته ،
وهي تفادر اشجارا
وترابا
وسياجا
وحزنا معه لكن حمدان
لم ينسَ ، فمن ذاك اليوم
وهو يدور على الارصفة بلا وعي ،
يذرع طرق القرية ،
يزرع قلب الليل مواويلا ، حارقة .
ويقول بأن له عاشقة
بين الصبار، يطارحها الدمع اذا التقيا
والضحكة احيانا ،
ويراها في الموّال كما يزعم

● أعرف حمدان الناطور ووقع الموّال
فكثيرا ما صادفني في الليل ،
ورافقني التجوال
وشربنا الشاي معا بالنعناع
ووقفنا فوق الكرمل ،
ننتظر القادم بسلال الافراح
وانا أعرف حزن الشجر المقهور ،
وأنّته الصامتة ، وصفرة اوراقه.
اذ تهوي في وجه الريح،

واعرف زهو الموت وكاميرات السيّاح
أعرف حمدان الطفل ، الولد اليافع ،
والشاب

الطعنة ، والبئر وما فعل الاخوان
أعرف هذا الزمن الخوّان
والمدن الطالعة من الصحراء بازيـاء
عصريه .

والبدو وحراس القصر
وقاتل حمدان الناطور ،
ومن شربوا الراح .
عصر اشتعل الحرش ،
وصارت خاصرة الجبل وساده .
والريح كفن .

(حين نهضت لاحضار فراش ،
كي يرتاح
أوقفني عند العتبه .)
● دهرا نمتُ ، وحين استيقظت
وجدتُ موانيء ، ومسالك تنتظر ،
وقال المذياع ، انتظروا ،
وتعثرت بخوذة جندي هارب
وبآخر ملقى ،
قلت: الطوفان، السبي، وقال المذياع:
لا تهنـوا .
لكن القلب الملتاع
اسقمه ما اسقمه
للحزن طقوسٌ ، والاوجاع
لا ترفق بالقلب وترحمه
عاوده النوم و ..
(يا دار ما دخلك شر) (٣)

ـ لكأنك تعنيني يا شيخ ، وتحكي ،
عما كان بنفسي ،
حين الأقدار اقلتني من بيتي ،
في اللدّ الى قبيّة حتى الجلزون .
والله عليم ما قاسيت من الجوع
ومن ذلّ السير .

● لا اعني احدا
غرناطة ، يافا ، اربد ، مكه
وأرميا العربيّ البكّاء
لا في الغزو ولا في التهليل .
يا مال الشام اضاعوك .
كمال الايتام اضاعوني .
طال مطال البين ،
وما احد قال
تعال ،
وشال الحمل ،
ولا تركوني .
ناديت محبيّ . همو خدعوني (٤)
حزني كالبحر عظيمٌ .
لا حنطة للاطفال المغشيّ عليهم.(٥)
عطشان ،
صبايا الحيّ ،ملآن جرار الماءوغادرن،
فمن يرويّني ؟
ناديت محبيّ . همو خدعوني .

ـ هوّن يا شيخ عليك .
الدنيا ذاهبة والباقي وجه الله .
والعمل الصالح

● .....

(وانسلّ حفيفا كالطيف ،
توقف عند الباب
وتهدّل تعبا ، كالغصن الملآن
فانخلع القلب من الرهبة والحزن
واستودعني اليقظة ،
والحيرة والليل وغاب)

ـ .....

● جسمي تقطّع وجرحي طال يامولاي
واقلام حبري براها الهمّ يا مولاي
نهر الفرا .....
.....

(أصوت الصارخ في البريه
عزالدين القسام العربي)

تعقيب على ما روي :
ريحٌ لافحةٌ ،
تاتي ـ من هذا الشرق النائم ـ
لا للتذريه ولا للتنقية .
اليوم يُباع أبو ذرّ بمزاد علنيّ ،
ويطوّف في الصحراء وحيدا ،
بين العربان ، قبيل الصلبِ ،
ولا يسمع صوتا في بوق .

والقسّام بلا قبر أو شاهدة ،
ممنوع ان يدخل مدن الدول العربية،
أن يدخل دور الفقراء ،
يصادق اعشاب الارض ،
فما عانق نافذة او مرّ بسوق .
الاّ طورد كالسارق وهو المسروق
والقسّام وحيد في الكرملِ ،
ينتشر على جسد الارض ،
ويطلع حنّون الحزن على ساعده ،
حيفا تحضنه في البعد ،
توسّده الصدر المشقوق .

وأبو حسن اللداوي .
يشكو من رفع الاسعار ،
ويسأل مولاه القادر تبديل الحالِ ،
باحسن من هذا الحال ،
وطالب بالعدل ، وطالب ، طالبَ .
ظلّ بدون حقوق .
اما حمدان الناطورُ ،
فاعلن كذبته الاولى ،
عن رؤيته المزعومة في الموال ،
وأيقن أنّ الموت قران ابديّ للعاشق،
ان رامَ مجاسدة تراب البيارة .
غنى لرعود آتية ، وبروق .
وانا ادركني الصبحُ ،
وقلبي كالبن المحروق .
عفوك يا وطني المشنوق
عفوك يا وطني المشنوق

محمد القيسي

هوامش :

١ ـ من الشعر الشعبي الفلسطيني
٢ ـ من الشعر الشعبي الفلسطيني
٣ ـ من الامثال الشعبية الفلسطينية
٤ ـ ٥ ـ التوراة ـ مراثي ارميا ـ الاصحاح الثاني .